مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

سيكولوجيَّة الدِّين في العالم العربيِّ-الإسلاميِّ وبداية الأبحاث الإمبريقيَّة

صالح بن إبراهيم بن عبد اللَّطيف الصّنيع:

«العلاقة بين مستوى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ»

عبد الرحيم تمحري
باحث مغربي

2023

- **بحث محكم**
- **قسم الدراسات الدينية**
- 17 غشت 2023

جميع الحقوق محفوظة © 2023

سيكولوجيَّة الدِّين في العالم العربيِّ-الإسلاميِّ وبداية الأبحاث الإمبريقيَّة[1]

صالح بن إبراهيم بن عبد اللَّطيف الصّنيع:

«العلاقة بين مستوى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ»[2]

1 - البحث مقتطف من الفصل الخامس من كتاب سيكولوجية الدين الصادر عن دار مؤمنون بلاحدود.

2 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، إدارة الثَّقافة والنَّشر بجامعة الإمام محمَّد بن سعود، الرّياض، 1993. (وهو، في الأصل، أطروحة دكتوراه تحت عنوان: العلاقة بين مستوى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميّ، 1989).

كان هذا هو موضوع أطروحة الدُّكتوراه الَّتي تقدَّم بها الباحث صالح بن إبراهيم بن عبد اللَّطيف الصّنيع إلى قسم علم النَّفس- كلِّيَّة العلوم الاجتماعيَّة بالرِّياض - عام 1993، ويمكن القول إنَّها تنتمي إلى علم النَّفس الجنائيِّ المؤسَّس على الدِّين الإسلاميِّ كتاباً وسنَّةً، وتراث علماء الإسلام السَّابقين، إضافة إلى التُّراث العلميِّ السِّيكولوجيِّ المعاصر، الَّذي لا يتعارض مع تعاليم الدِّين الإسلاميِّ.

قَسَّمَ الباحث دراسته إلى بابين:

الباب الأوَّل: يتكوَّن من قسمين؛ تناول القسم الأوَّل التَّديُّن، وتناول القسم الثَّاني السُّلوك الإجراميَّ، مع التَّركيز على البداية التَّاريخيَّة لكلٍّ منهما، ثمَّ العوامل المؤثِّرة فيهما، والنَّظريَّات المفسِّرة لهما، مع إضافة خاصَّة تتعلَّق بموقف الإسلام منهما، ونظرته إليهما؛ أي إلى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ.

أمَّا الباب الثَّاني، فينقسم إلى خمسة فصول؛ عرض الفصل الأوَّل مشكلة الدِّراسة وبيَّنَ أهمِّيَّتها وأهدافها وحدودها وأهمَّ مفاهيمها، وتناول الفصل الثَّاني الدِّراسات العربيَّة والغربيَّة الَّتي استطاع الباحث الحصول عليها، عرضاً وتعليقاً، واهتمَّ الفصل الثَّالث ببيان خطَّة البحث وإجراءاته، من حيث المنهجُ المتَّبَع والإشكاليَّة والفرضيَّات والأدوات (المقاييس) المستخدمة في البحث وإجراءات التطبيق، ثمَّ وصف مجتمع البحث والعيِّنات المختارة فيه، وخُصِّصَ الفصلُ الرَّابع لعرض نتائج البحث وتفسيرها من استمارة المعطيات الخاصَّة بأفراد العيِّنتَين، المسجونين وغير المسجونين، ثمَّ دراسة الفروق بين متوسِّطات درجات أفراد عيِّنتَي البحث في مقياسَي: مستوى التَّديُّن الَّذي أعدَّه الباحث، ومقياس كارلسون النَّفسيِّ لسلوك المجرمين المودَعِين في السُّجون Keneeth Carlson Psychological Survey، ثمَّ دراسة الحالة لعشرة أفراد من عيِّنة المساجين- بعد أن طبَّق المقياسين عليهما- نصفُهم مِمَّن حصلوا على أعلى الدَّرجات في مقياس مستوى التَّديُّن؛ والنِّصف الآخَر، مِمَّن حصلوا على أدنى الدَّرجات في نفس المقياس؛ لمعرفة ماضيهم الدِّينيِّ والتَّربويِّ؛ وكذلك نظرتهم لبعض الموضوعات الدِّينيَّة والاجتماعيَّة؛ ولمقارنة استجاباتهم ومعرفة الفروق بينهم.

أمَّا الفصل الأخير، فقد عرض فيه بعض الصُّعوبات الَّتي واجهته كباحث، ثمَّ قدَّم التَّوصيات، وكذلك بعض الموضوعات المقترَحة للبحث والدِّراسة.

1-1- أهمِّيَّة العلاقة بين مستوى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ:

نقف في كتاب الصَّنيع على ثلاثة أنواع من الأهمِّيَّة لهذا الموضوع؛ أولاها دوليَّة، وثانيها وطنيَّة - ذكرهما الباحث-، وثالثها علميَّة -استنبطناها نحن من قراءتنا لكتاب هذا الباحث-.

فأمَّا عن الأهمِّيَّة الدّوليَّة للموضوع، فإنَّ الأمم المتحدة United Nations قد شعرت بخطر الجريمة في مختلف بقاع العالم، بل وبين بلدان العالم (أي الجريمة العابرة للدُّول وللقارَّات)؛ وذلك منذ عام 1975 في مؤتمر تورونتو بكندا، الَّذي خُصِّص للحدِّ من الجرائم، ومعاقبة المجرمين[1]، إلَّا أنَّ حضور التَّديُّن، وتأثيره في الحدِّ من الجرائم، وتقليص حظوظ ارتكابها، قد تجلَّى - بشكل واضح- في اهتمامات المنظَّمات التَّابعة لهيئة الأمم المتَّحدة، وخاصَّة «المجلس الاقتصاديَّ والاجتماعيَّ»، وبشكل أخصَّ «لجنة منع الجريمة ومكافحتها»، في تقرير الأمين العامِّ، في الدَّورة الثَّامنة، بفيينَّا، عام 1984، ولاسيَّما في ثلاثة بنود، هي الحاملة للأرقام 37 و49 و50، والَّتي حضَر فيها الدِّين:

- وَرَدَ في البند 37 أنَّ «عمليَّة التَّحوُّل الملحوظة إلى النَّزعة الدُّنيويَّة -أي إلى تقادم بعض المؤسَّسات الدِّينيَّة والتَّخلِّي عن المعتقدات الدِّينيَّة- تساعد وتدعم، في بعض الحالات، فقدان القيم الاجتماعيَّة التَّقليديَّة، والاستعاضة عنها بمواقف فرديَّة وانتهازيَّة ومواقف تجريبيَّة عمليَّة»[2].

- وَوَرَدَ في البند 49 ما يأتي: «لوحظ أنَّ البلدان الَّتي يتوفَّر فيها مزيج قويٌّ من الانتماء الثَّقافيِّ والتَّقاليد والدِّين تتَّصف بمرونة خاصَّة في تحمل الآثار الجانبيَّة السَّلبيَّة للتَّغيُّر الاجتماعيِّ الاقتصاديِّ...هذه العوامل قادرة على التَّقوية الكافية لبنية الضَّبط الاجتماعيِّ، وإكسابها الشَّرعيَّة...؛ مثل الأسرة والمجتمع المحليِّ»[3].

- وَوَرَدَ في البند 50 ما يأتي: «يبدو أنَّ للدِّين في كثير من البلدان أثراً مانعاً قويَّاً على السُّلوك المنحرف والمعادي للمجتمع، وخاصَّة عندما يوجد ارتباط وثيق بين العقائد والوصايا الدِّينيَّة والتَّشريع ونظام العدالة الاجتماعيَّة. وبالإضافة إلى ذلك، يحمي الدِّين المؤسَّسات الأسريَّة من الآثار الخاصَّة للتَّغيُّر الاجتماعيِّ السَّريع، ويعطي عمليَّة التَّنشئة الاجتماعيَّة الَّتي تقوم بها هذه المؤسَّسات محتوىً ويكسبها الشَّرعيَّة»[4].

---

1 - United Nations, 1975, p.5, quoted in الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة: ص143

2 - الأمم المتَّحدة، فيينا، ص9، ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، المرجع السابق، ص143

3 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص ص12-13

4 - المرجع نفسه، ص 13

- كما وَرَدَ في ورقة العمل الّتي أعدَّتها الأمانة العامَّة للأمم المتَّحدة، وقدَّمتها لمؤتمر الأمم المتَّحدة في موضوع الحدِّ من الجريمة ومعاقبة المجرمين، المنعقد بمدينة ميلانو الإيطاليَّة عام 1985، أنَّ المنظَّمات الدِّينيَّة تُعَدُّ مورداً من الموارد المتوفِّرة في المجتمع، يمكن الاستفادة منها في المجتمعات المحلِّيَّة لمنع الجريمة[5].

ماذا يعني هذا الاهتمام الدّوْليُّ بالدِّين؟

على الرّغم من انقضاء ثلاثين سنة ونيِّف على هذه البنود والنُّصوص، فإنَّنا - مع ذلك- نستطيع أن نلاحظ أنَّ الجريمة كمُعضلة حقيقيَّة عرفتها البشريَّة منذ فجْرها، وما زالت تعاني منها اليوم بأشكال مختلفة، وأنواع متباينة، وأساليب جديدة تساير التَّطوُّرات في مختلف المجالات (إلكترونيَّة، ماليَّة، في العرْض، في السِّلاح، في المخدِّرات، في الإرهاب، في الحدود الدُّوليَّة... إلخ)؛ فانتبهت الأمم المتَّحدة إلى مواجهتها -إضافة إلى الوسائل الأمنيَّة والقضائيَّة والدُوليَّة (الأنتربول)- بوسائل ثقافيَّة، وعلى رأسها الدِّين.

وهي قد عبَّرت عن ذلك في البند 37 المذكور، الَّذي أشار إلى سيطرة النَّزعة الدُّنيويَّة، في شكلها المادِّيِّ والرَّأسماليِّ والإباحيِّ وغيرها من الأشكال، على الأفراد، وإلى أنَّ ذلك يعود إلى تراجع النَّزعة الدِّينيَّة بفعل تقادم المؤسَّسات الدِّينيَّة مقارنة مع الواقع المتحرِّك، وتقاعسها عن وظيفتها الدِّينيَّة التَّوجيهيَّة والتَّنشيئيَّة؛ فكان من الطَّبيعيِّ أن تُفْقد القيم الاجتماعية القائمة على التَّعاون والتَّآزر ليحلَّ محلَّها الفردانيَّة والانتهازيَّة الَّتي تساعد على توفُّر العوامل المناسبة لتفشِّي الجريمة.

الدِّين، إذن، يلعب دوره في الضَّبط الاجتماعيِّ لما يشرِّع للفرد الحلال والحرام والمباح والمكروه...، ويحدِّد للأفراد وجْهَتهم، ويعيِّن لهم معاييرهم، ويشكِّل قيمهم؛ فيحدُّ من ميلِهم إلى السلوكيات المضادَّة للمجتمع، وعلى رأسها الجرائم.

إنَّ اهتمام منظَّمة الأمم المتَّحدة بعلاقة الدِّين بالجريمة يبدو أيضاً من خلال البند 49، حين انتبهت إلى أنَّ البلدان الَّتي تتمتَّع بتقاليد ثقافيَّة، وأُخرى دينيَّة، ينتمي إليها الأفراد، ويحسُّون داخلها بهويَّتهم، لا تنال منهم التَّغيُّرات الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة الَّتي تعرفها البلدان والأمم؛ لأنَّ تلك التَّقاليد من شأنها أن تقوّيهم، وأن تُقوِّي مؤسَّسات الضَّبط الاجتماعيِّ الَّتي تعود على الفرد بالحماية.

وتتَّضح الأهمِّيَّة الوطنيَّة لدراسة علاقة التَّديُّن بالجريمة عند الصَّنيع في بيان أثر تديُّن الفرد المسلم في حمايته من الوقوع في الجريمة، وفي إرشاد أفراد المجتمع الإسلاميِّ -وهنا يتعلق الأمر بالمجتمع العربيِّ

5 - الأمم المتَّحدة، ميلانو، 1985. نقلاً عن الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، المرجع السَّابق، ص144

السُّعوديِّ- إلى التَّديُّن المستقيم، المؤدِّي إلى السُّلوك السَّويِّ، ومكافحة الجرائم، وإعطاء صورة للشُّعوب غير المسلمة (وغير المتديِّنة) عن قدرة التَّعاليم الإسلاميَّة على مقاومة الانحرافات والجرائم[6].

هنا تُطرح الأسئلة: هل يتعلَّق الأمر بواقيات ثقافيَّة أم بحاميات دينيَّة؟ ألم تشهد مناطق من العالم حروباً ومجازرَ بفعل عوامل دينيَّة، روَّجت لأفكار عنصريَّة، نجَم عنها إقصاءات، بل وتصفيات للمختلِف دينيًّاً؟ ألم تعرف البلاد الَّتي تدين بالإسلام تزايدَ نسبة الجريمة، مع أنَّ الدِّين يُشكِّل ركيزتَها الدُّستوريَّة والهويَّاتيَّة؟ ماذا عن دعاوى العلمانيَّة والتَّحرُّريَّة في البلاد الإسلاميَّة نفسها؟ وأخيراً، هل يتعلَّق الأمر بضابط خُلُقيٍّ وقيميٍّ أم بنواهٍ دينيَّة ما دام هناك متديِّنون يمارسون الإجرام؟

أمَّا نظريًّاً، فتهدف هذه الدِّراسة إلى:

- أن تكون بداية لفتح مجال علميٍّ لدراسات لاحقة في ميدان مباحث العلوم الاجتماعيَّة وخصوصاً مباحث علم النَّفس، من منظار الدِّين الإسلاميِّ؛

- تحديد أبعاد التَّديُّن في الدِّين الإسلاميِّ بوضع مقياس لقياس تلك الأبعاد، وتقنينه على عيِّنة من الأفراد في المجتمع السُّعوديِّ؛

- معرفة طبيعة العلاقة بين مستوى تديُّن الأفراد وسلوكهم الإجراميِّ عن طريق الدِّراسة الارتباطيَّة المقارنة بين مجموعتين من الذُّكور السُّعوديِّين، تتكوَّن إحداهما من أفراد مرتكبين جرائمَ جنائيَّة، وعددهم 160 فرداً (تعاطي محذرات، سُكر، جنسيَّة مثليَّة، زنا، سرقة، تزوير، تَستُّر على جرائم...)، ومودَعين بالسِّجن بالعاصمة الرِّياض. وتتكوَّن الأخرى من أفراد لم يرتكبوا جرائم جنائيَّة ولم يودعوا بالسِّجن من الموظَّفين بالشَّركة السُّعوديَّة الموحدة للكهرباء بمدينة الرِّياض، وعددهم 140 فرداً؛

- دراسة الفروق بين المجموعتين المذكورتين على مستوى التَّديُّن (الَّذي يقيسه مقياس مستوى التَّديُّن)، ومستوى السُّلوك الإجراميِّ (الَّذي يقيسه مقياس كارلسون النَّفسيُّ)؛

- إنجاز دراسة الحالة لبعض المجرمين - الَّذين تمَّ سجنهم- قصد تعرُّف أسباب سلوكهم الإجرائيِّ، ومدى علاقته بالتَّديُّن لديهم.

- الخروج ببعض التَّوصيات، في ضوء ما أسفرت عنه نتائج هذه الأبحاث بمختلف مراحله وأدواته، عن دور التَّديُّن الصَّحيح والقويم في الحدِّ من السُّلوك الإجراميِّ وانتشاره[7].

---

6 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص144

7 - المرجع نفسه، ص ص144-145

2-1- شُحُّ الدِّراسات العربيَّة في سيكولوجيَّة الدِّين في مقابل الدِّراسات الغربيَّة:

إلى حدود السَّنة الثَّالثة من العشريَّة الأخيرة من القرن العشرين؛ أي 1993 تاريخ تقديم المؤلِّف لأطروحته، لم يستطع هذا الأخير أن يحصل على دراسات عربيَّة ناقشت العلاقة بين التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ ما عدا دراستين قبلَه بستّ عشْرة سنة؛ الأولى لمالك بدري (حكمة الإسلام في تحريم الخمر)، والأخرى لسهيل صالح وعادل الدّمرداش (المدمنون على المخدِّرات بالكويت) -وسنعرض لهما لاحقاً-. في مقابل الدِّراسات الغربيَّة، وبالضَّبط تلك الَّتي كتبت بالإنجليزيَّة والأمريكية خاصَّة؛ وذلك كما عرضتها مجلَّات علميَّة متخصِّصة، بلغ عددها ثلاث عشرة دراسة. والملاحَظ أنَّه عدد لا بأس به، علماً أنَّ المؤلِّف لم يرجع إلى الدِّراسات التي أنجزت في أطروحات جامعيَّة، وكتب مؤلَّفة أخرى في الولايات المتَّحدة، ولم يتمكَّن من مراجعة دراسات أخرى في مجلَّات وأطروحات ومؤلَّفات أخرى في بلدان ولغات أخرى؛ ككندا وفرنسا وبريطانيا وألمانيا وهولندا وروسيا واليابان...

إلَّا أنَّ الواقع يشهد بشُحِّ الدِّراسات العربيَّة في سيكولوجيَّة وسيكو سوسيولوجيَّة الدِّين، أو التَّديُّن في علاقاتها بمتغيِّرات أخرى مقارنة بالغربيَّة. فَلْنُلْقِ نظرة على هذه الدِّراسات العربيَّة والغربيَّة الَّتي أوردها الصّنيع لنتعرَّف على موضوعاتها، وعلى مقاربتها الإمبريقيَّة الَّتي كانت تفتقر إليها الدِّراسات العربيَّة في سيكولوجيَّة الدِّين والتَّديُّن في التِّسعينيَّات من القرن الماضي؛ وقتَذاك الَّذي كان يُحضِّر فيه الصّنيع أطروحته، حتَّى نستطيع الاطِّلاع على توجُّهات البحث آنذاك.

. دراسة مالك بدري تحت عنوان «ما هو الدَّور النَّفسيُّ والرُّوحيُّ للإسلام في مساعدة مَن يدمنون الخمر من المسلمين؟»[8]، الَّتي قدَّمَها في إطار ندوة «علم النَّفس والإسلام» بجامعة الرِّياض عام 1978. درس هذا الباحث مجموعة مكوَّنة من 31 فرداً من السُّودانيِّين الَّذين يدينون بالإسلام، ممَّن كانوا مدمنين على الخمر، ثمَّ أقلعوا عنها. كان متوسِّط أعمار أفراد العيِّنة هو 47 سنة، يمثِّلون معظم طبقات المجتمع السُّودانيِّ. استخدم الباحث استبياناً تضمَّن أسئلة عن الإدمان، وزمن الإقلاع النِّهائيِّ، ونوع الأعراض الَّتي تلت الإقلاع والأسباب النِّهائيَّة للإقلاع مع ترتيبها حسب أهمِّيَّتها لدى المبحوث، وإعطاء السَّبب الأوَّل ثلاثَ نقط، والثَّاني نقطتين، والثَّالث نقطة واحدة. والمثير في هذه الدِّراسة هو الرُّتبة الأولى الَّتي احتلَّها الدَّافع الإسلاميُّ بـــ65 نقطة، يتبعه الأسباب الصِّحِّيَّة بـــ21 نقطة، ثمَّ الأسباب الاقتصاديَّة بـــ15 نقطة، والضُّغوط الأُسريَّة بـــ13 نقطة، وقوَّة الإرادة بـــ9 نقط، والهزَّات النَّفسيَّة العنيفة بـــ6 نقط؛ ما يظهر الأثر القويَّ للدِّين على سلوك الأفراد، وأهمِّيَّة الدِّين في معالجة المنحرفين، وقيمة التَّنشئة الدِّينيَّة القويمة.

---

8 - مالك بدري، ما هو الدَّور النَّفسيُّ والرُّوحيُّ للإسلام في مساعدة مَن يدمنون الخمر من المسلمين؟ ندوة «علم النَّفس والإسلام»، جامعة الرِّياض، 1978، ذكره الصّنيع في مرجعه السَّابق، ص155 (وبالمناسبة، لم نورد هذه الدِّراسة كنموذج للدِّراسات الإمبريقيَّة الإسلاميَّة التَّأصيليَّة؛ لأنَّنا لمَّا رجعنا إلى الكتاب، الَّذي تناول هذه الدِّراسة لمالك بدري، والمسمَّاة «حكمة الإسلام في تحريم الخمر: دراسة نفسيَّة اجتماعيَّة» (هرندن، فرجينيا، الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة، المعهد العالي للفكر الإسلاميّ، 1996)، لم نجد بيانات عن مجتمع البحث وعيِّنته وطريقة اختيارها والأدوات المستعملة في جمع المعطيات والنِّسب الإحصائيَّة. إنَّها من صنف الدِّراسات العامَّة المقارنة بين مجتمع الإيمان في الإسلام والمجتمع الغربيّ والأمريكيّ خاصَّة).

. دراسة سهيل صالح وعادل الدّمرداش، تحت عنوان «دراسة استعراضيَّة لعيِّنة مختارة من المدمنين على المخدِّرات بالكويت»[9]، قدَّماها في المجلَّة البريطانيَّة للإدمان عام 1987، وهي دراسة وثائقيَّة مقارنة لملفَّات متعاطي المخدِّرات من المتقدِّمين للعلاج بمستشفى الكويت للطِّبِّ النَّفسيِّ، في فترتين زمنيَّتَين يفصل بينهما تاريخ صدور قانون مَنع بيع الكحول وتعاطيه في الأماكن العامَّة. توصَّل الباحثان إلى أنَّ هناك زيادة في نسبة المتعاطين تقدَّر بـ 8% في مدَّة عشر سنوات؛ ما يعني أنَّ التَّعاليم الدِّينيَّة بحدِّ ذاتها ليسَت كافية لمنع استهلاك الكحول. وبالتَّالي، فلا بُدَّ من أن يكون الفرد متديِّناً، وممارساً للتَّعاليم، ومطبِّقاً للواجبات كي يمتنع عن الإدمان. أمَّا التَّشدُّق بالتَّعاليم الدِّينيَّة من دون تطبيقها، فلا يجدي نفعاً، ولا يثمر فائدة؛ أي إنَّ التَّديُّن اللَّفظيَّ (المظهريَّ) ليس هو التَّديُّن العمليَّ (الجوهريَّ).

وتظهر أحاديَّة ومحدوديَّة هاتين الدِّراستَين العربيَّتين في انحصارهما داخل موضوع واحد، هو إدمان الخمور، مع أنَّ الظَّواهر الباثولوجيَّة متعدِّدة في العالم العربيِّ والإسلاميِّ، وهو ما كشفت عنه دراسة مؤلِّف «العلاقة بين مستوى التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ»، عندما استقصى وبحث عن نوع القضيَّة الَّتي أدَّت إلى دخول أفراد العيِّنة المدروسة السِّجنَ في المرَّة الأخيرة؛ فكانت كالتَّالي بحسب نسبتها المئويَّة: مخدِّرات 68.2%، سُكر10%، لواط (جنسيَّته مثليَّة) 8.2%، زنا 6%، سرقة 2.5%، تزوير 1.2%، تستُّر عن جريمة 1.2%، تهمة القتل 1.2%، غير مبين 1.2%، انتحال شخصيَّة 0.6%، اعتداء مُسلَّح 0.6%، ترويج خمر 0.6%، مضاربة 0.6%.

صحيح أنَّ جريمة تعاطي المخدِّرات تحتلُّ الرتبة الأولى لدى المسجونين من السّعوديِّين بسجن الرِّياض، ثمَّ يتبعها السُّكر، إلَّا أنَّ هناك قضايا/ ظواهر أخرى أحصاها المؤلِّف، هي إحدى عشرة قضيَّة -أوردناها أعلاه-؛ ما يعني أنَّ كلَّ الجرائم يمكن أن تدرس كمتغيِّرات في علاقتها بالبُعد الدِّينيِّ والسُّلوك التَّديُّنيِّ، كما أنَّ الانتماء إلى الإسلام، والعيش في بلد يمثِّل الإسلام، لا يمنعان من ارتكاب جرائم شدَّد الإسلام في النَّهي عنها؛ فالأمر يتعلَّق بالطَّبيعة البشريَّة أكثر منه بالانتماء إلى دين سماويّ.

3-1- تنوُّع وغنى الدِّراسات الغربيَّة:[10]

. دراسة بول بريتزل P.Pretzel:

موضوعها هو دراسة العلاقة بين الخلفيَّة الدِّينيَّة للفرد وإقدامه على الانتحار، وتكوَّنت عيِّنتها من مجموعة الأفراد المعالجين بمركز الوقاية من الانتحار بلوس أنجلس بالولايات المتَّحدة، وأداتها هي مقابلات معمَّقة مع كلِّ مبحوث حول خلفيَّته الدِّينيَّة، ومدى إدراك المبحوثين لمحاولة الانتحار الَّتي أقدموا عليها. أمَّا

9 - Suheil Saleh and Adel Demerdach, A retrospective study of selected population of drug dependant subjects in Kuwait, British journal of addiction¬ March, 1978, N° 1, pp. 89- 92. ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، في ص ص 156-157

10 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص158

أهمُّ نتائجها، فهي أنَّ الأفراد الَّذين أقدموا على محاولات انتحار يتَّسمون بضعف الخلفيَّة الدِّينيَّة وعدم الإيمان بوجود الله، وعدم تدخُّله في حياتهم، وأنَّ العبادات لا معنى لها عندهم، وأنَّ الحياة والموت ليس لهما هدف أو معنى، وفي نظرهم لا يوجد إنسان لديه فكرة واضحة عن وجود حياة بعد الموت[11].

. دراسة ريتشارد كوندنتن R.Kundenten:

موضوعها هو العلاقة بين وجود الفرد داخل السِّجن ومستوى التَّديُّن لديه مقارنةً مع أفراد آخرين من نفس طائفته الدِّينيَّة. عيِّنتُها نزلاء سجن ولاية إنديانا الأمريكيَّة من طائفة المعمدانيِّ المسيحيَّة وعددهم 136. أداتها استبيان جلوك وستارك Glock and Stark لقياس الميول الدِّينيَّة لدى المجرمين، مع مقارنة النَّتائج الَّتي حصلت عليها من مجموعة البحث (التَّجريبيَّة) بنتائج مجموعة أخرى من نفس الطَّائفة الدِّينيَّة لكن من خارج السِّجن (المجموعة الضَّابطة). من أهمِّ نتائجها: أنَّ نزلاء السِّجن حصلوا على نسب أدنى من نسب الأفراد من غير المساجين في مجالات الاعتقاد الدِّينيِّ وممارسة الشَّعائر الدِّينيَّة والخبرات الدِّينيَّة؛ ما يدلُّ على أنَّ الأفراد المجرمين (السُّجناء) ينقصهم التَّديُّن بدرجة كبيرة، بالقياس إلى الأفراد العاديِّين في المجتمع الَّذي يعيشون فيه[12].

. دراسة ستريلت كرايغ وباري براون S.Craig and B. Brown:

موضوعها هو المقارنة بين مجموعتين من الشَّباب -عدد أفراد كلِّ واحدة منها 65 فرداً-. الأولى تتعاطى المخدِّرات والأُخرى لا تتعاطاه. والأداة هي المقابلة بنوعيها المغلق والمفتوح بطريقة فرديَّة، هذه الأخيرة مُقسَّمة إلى أربعة فئات من النَّشاط هي: أنشطة أوقات الفراغ، وأنشطة الكنيسة، وطموحات العمل، والعلاقات العائليَّة.

ومن أهمِّ النَّتائج أنه، عند مقارنة هذه الأنشطة لدى أفراد المجموعتين في مرحلة الطُّفولة المتأخِّرة وفي مرحلة الشَّباب، تبيَّن أنَّ نسبة أفراد العيِّنة الَّتي لا تتعاطى المخدِّرات ممَّن شاركوا في أنشطة الكنيسة في مرحلة الشَّباب تُقدَّر بـــ22%، مقابل 6% في مجموعة المتعاطين للمخدِّرات؛ ما يدلُّ على مدى تأثير الالتزام بالدِّين، وممارسة الأنشطة الدِّينيَّة، في الحماية من المخدِّرات[13].

---

11 - سنكتفي، في عرض هذه الدِّراسات، بالتَّركيز على الأهمِّ؛ كالموضوع والأداة والنَّتيجة عِوَضَ التَّفصيل. Paul W.Pretzel, Suicide and Religion; Apreminilary study, Dissertation Abstracts International, 1973, Vol 34, pp.2948-2949. Quoted in Ibid, pp.158-159. ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، في ص158

12 - Richard d.Kundenten, The Religion of Indiana Baptist Prisoner, Review of Religions Research, 1977, Vol. 9 N°1, pp.16-31, Quoted in.159 ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، في ص .

13 - Starlet R.Caig and Barry Brown, Comparison of youthful Heroin Users and Non- Users from one urban Community, The International Journal of addiction, 1975, Vol 10, pp. 53-64. ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص160

. دراسة شارل تيتل وميكائيل ولتش: Ch. Title and M. Welch

موضوعها هو العلاقة بين التَّديُّن والانحراف، وعيِّنتها 1993 فرداً أُخذوا من إحصاء لثلاث ولايات أمريكيَّة (أيوا، نيوجرسي، أورجن)، وأداتها مقابلات يقوم فيها كلُّ مبحوث بتعبئة تقرير ذاتيٍّ يشمل تسعة أنواع من السُّلوك المنحرف الَّذي يمكن أن يقع مستقبلاً، لا سلوكاً منحرفاً سبق أن قام به المبحوث. ومن أهمِّ نتائج هذا البحث أنَّ التَّديُّن قادر على منع الانحراف في السِّياق الاجتماعيِّ غير المنظَّم، والمتمركز حول الحياة الدُّنيويَّة[14].

. دراسة روربوف وجيسّر Rohrbough and Jessor:

موضوعها التَّديُّن كضابط شخصيٍّ للإنسان ضدَّ السُّلوك المنحرف، وهي دراسة طوليَّة على مدى ثلاث سنوات على عيِّنتَين؛ إحداهما تلاميذ الثَّانويِّ من الجنسين، وعددهم 949 فرداً، وأُخراهما طلَّاب الكلِّيَّة من الجنسين، وعددهم 497 فرداً. أمَّا الأداة، فهي استبيان من خمسين صفحة، تحتاج إلى ساعة ونصف من أجل الإجابة عن الأسئلة الَّتي تضمَّنت مقياساً للتَّديُّن يقيس أربعة أبعاد، هي: التَّصوُّر الدِّينيُّ والشَّعائر الدِّينيَّة والاتِّساق الدِّينيُّ والخبرة الدِّينيَّة، ومقياساً للتَّحكُّم في الشَّخصيَّة، ومقياساً للسُّلوك المنحرف، ومقياساً للميل إلى الانحراف. وأهمُّ نتائجها أن هناك علاقة ارتباطية موجبة ذات دلالة إحصائيَّة بين مقياس التَّديُّن ومقاييس التَّحكُّم بالشَّخصيَّة، وهناك علاقة سالبة ذات دلالة إحصائيَّة بين مقياس التَّديُّن ومقاييس الانحراف والميل إلى الانحراف[15].

. دراسة بانتون Panton:

موضوعها أثر الخلفيَّة الدِّينيَّة على نزلاء سجن شمال كارولينا الأمريكيَّة من الذُّكور من خلال سجلَّات معلومات مجموعتين؛ الأولى: من النُّزلاء الَّذين كانت خلفيَّتهم الدِّينيَّة قبل دخول السِّجن، ضعيفة من خلال قلَّة مشاركتهم في الأنشطة الدِّينيَّة. والأُخرى من النُّزلاء الَّذين كانت خلفيَّتُهم الدِّينيَّة قبل دخول السِّجن عالية من خلال كثرة مشاركتهم في الأنشطة الدِّينيَّة. وأمَّا النَّتيجة، فهي أنَّ المجموعة الأولى سيِّئة التَّوافق وكثيرة المشاكل داخل السِّجن، في حين أنَّ المجموعة الثَّانية متوافقة داخل السِّجن قليلة المشاكل.

بعد هذا عمل بانتون على استخراج مقياس الهويَّة الدِّينيَّة من مقياس مينيسوتا المتعدِّد الأوجه للشَّخصيَّة MMPI وخاصَّة من المقياس رقم 15 المسمَّى «الموقف الدِّينيّ»، ثمَّ طبَّق هذا المقياس على أربع مجموعات من الذُّكور من نزلاء السِّجن المذكور:

---

14 - Charles Title and Michael Welch, Religion sity and Deviance, Social force, Marche; 1983, Vol. 61, N° 3, pp.653-162.161 ذكره الصنيع في مرجعه المذكور، ص ص.

15 - John Rohrbaugh and Richard Jessor, Religiosity in youth, Journal of Personality, March, 1975, Vol. 43, pp.136-161.155 ذكره الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص.

- مجموعة عددها 117 نزيلاً تتَّصف بكثرة المشاكل وسوء التَّوافق داخل السِّجن؛

- مجموعة عددها 117 نزيلاً تتَّصف بقلَّة المشاكل وحُسن التَّوافق داخل السِّجن؛

- مجموعة عددها 100 نزيلاً تتَّصف بكثرة المشاكل وسوء التَّوافق داخل السِّجن؛

- مجموعة عددها 100 نزيلاً تتَّصف بقلَّة المشاكل وحُسن التَّوافق داخل السِّجن.

وأهمُّ نتائجها أنه كلَّما ارتفعت الخلفيَّة الدِّينيَّة لدى الفرد، ساعد ذلك على حُسن توافقه، وقلَّة مشاكله داخل السِّجن، والعكس صحيح[16].

. دراسة الثُّلاثيِّ بيك، تشلفانت وميلتون Peek, Chalfant and Milton:

موضوعها العلاقة بين التَّديُّن والخوف من العقاب عند قيادة السَّيَّارة في حالة سُكر (المتغيِّرات المستقلَّة هي الانتساب الدِّينيُّ لإحدى المؤسَّسات المسيحيَّة والتَّديُّن، والمتغيِّر التَّابع هو الخوف من وقع العقاب). عيِّنة البحث تتكوَّن من 2071 فرداً في مدينة بالجنوب الشَّرقيِّ للولايات المتَّحدة على مدى أربع سنوات. وكانت خلاصة النَّتائج كالآتي: هناك علاقة ذات دلالة إحصائيَّة موجبة بين الانتساب الدِّينيِّ والخوف من وقوع العقاب، وفي هذا دلالة على أنَّ التَّديُّن رادع للفرد من السُّلوك المنحرف الَّذي ينتج عنه عقاب[17].

. دراسة باتيسون وباتيسون Pattison and Pattison:

موضوعها هو تغيُّر اتِّجاه مجموعة من الذُّكور الشَّواذِّ جنسيَّاً إلى اتِّجاه طبيعيٍّ نتيجة انخراطهم في نشاط دينيٍّ للكنيسة، يُسمَّى «العلاج الشَّعبيَّ»، استمرَّ لخمس سنوات. عيِّنتها 11 فرداً. أداتها، مقابلات مع أفراد العيِّنة، ودراسة ملفَّات المبحوثين المودَعة بالكنيسة، ومقابلات مع زوجات المتزوِّجين من عيِّنة الدِّراسة، وعددهنَّ 6. تمَّ تطبيق مقياس كينسي Kinsey Scale على أفراد العيِّنة لقياس الميل نحو نفس الجنس أو الجنس الآخَر. وخلاصة النَّتائج دلَّت على التَّحوُّل الكبير في اتِّجاه وممارسة أفراد العيِّنة للجنس من أفراد شواذ إلى أفراد طبيعيِّين، وأثر الخبرة الدِّينيَّة في هذا التَّحوُّل وتغيير السُّلوك المنحرف[18].

---

16 - James Panton, An MMPI item content scale to measure religion identification within a state prison population, Journal of clinical psychology, jul 1979, vol 35, p.588-591.163 ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، ذكره الصنيع.

17 - Peek, C.W. et al., Sinners in The hands of An Angry God: Fundamentalist fear about Drunken Driving, Journal for the Scientific Study of Religion, 1979, 18(1), p. 29-39.164 ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، ذكره الصنيع.

18 - E.M.Pattison and M.C.Pattison, ``Ex-Gays'' religiously mediated change in homosexuals, American Journal of Psychiatry, Gec 1980, vol 137; pp.1553-1562.165 ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، ذكره الصنيع.

. دراسة الثُّلاثيِّ ستارك، دويك وكِنت Stark, Doyk and Kent:

موضوعها هو العلاقة بين معدَّل العضويَّة في الكنيسة وانخفاض معدَّل الجريمة داخل المجتمع، والعيِّنة هي تقارير إحصائيَّة لـ193 منطقة إحصائيَّة، تمَّ أخذها من التَّقرير المنجَز عن الجريمة بمختلف مناطق الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة. والطَّريقة هي تطبيق معاملات الارتباط بين عضويَّة الأفراد في الكنيسة وانخفاض معدَّل الجريمة داخل مجتمع هؤلاء الأفراد، مع اختبار المتغيِّرات الهامَّة الَّتي ذكر أنَّ لها تأثيراً على معدَّل الجريمة في دراسات سابقة. النَّتيجة: هناك ارتباط سالب ذو دلالة إحصائيَّة عالية بين معدَّل العضويَّة في الكنيسة ومعدَّل الجريمة، وبالتَّالي، فإنَّ الانخراط في أنشطة دينيَّة يمثِّل سياج حماية من الوقوع في الجريمة[19].

. دراسة ستاك وكانافي Stack and Kanavy:

موضوعها هو أثر الدِّين في الحدِّ من ارتكاب جرائم الاغتصاب بالإكراه من خلال دراسة متغيِّرين هما: نسبة الكاثوليك في المدن، وعدد جرائم الاغتصاب المرتكبة في تلك المدن، دراسة ارتباطيَّة؛ العيِّنة: بيانات إحصائيَّة عن خمسين ولاية أمريكيَّة عن طريق النَّشرات الإحصائيَّة عن متغيِّرات عدد السَّكن والعِرق والعمر والدَّخل والبطالة والهجرة والدِّين. الطَّريقة الإحصائيَّة: تحليل الانحدار المتعدِّد لتحليل المعلومات ومعاملات بيطا Coefficients Beta لتقييم المعلومات. خلاصة النَّتيجة هي كلَّما ارتفعَت نسبة الكاثوليكيِّين في المدن انخفضت معدَّلات جرائم الاغتصاب بالإكراه في تلك المدن[20].

. دراسة مارتن Martin:

موضوعها هو أثر الانخراط في النَّشاط الدِّينيِّ في الحدِّ من نِسَب الانتحار. وعيِّنتها الإحصاءات الحكوميَّة الصَّادرة عن المؤسَّسات الرَّسميَّة لمدَّة 6 سنوات في مجالين مُحدَّدين، هما: معدَّلات الحضور إلى الكنيسة، ومعدَّلات الانتحار لدى الأفراد من الذُّكور والإناث، والبيض والسُّود. وكانت النَّتيجة أنَّ المعدَّلات المرتفعة للمشاركة في الأنشطة الدِّينيَّة تحدُّ مِن معدَّلات الانتحار بين أفراد المجتمع[21].

إنّ ما يمكن أن نخرج به من الدِّراسات الغربيَّة، إضافة إلى وفرتها، هو جرأتها على معالجة موضوعات واقعيَّة معيشة؛ كالشُّذوذ الجنسيِّ (المثليَّة)، والاغتصاب، والانتحار، وعلاقة الاختلاف الدِّينيِّ بالجرائم المرتكَبة،

---

19 - R.Stark, D.P.Doyk and L.Kent, Rediscovring Moral Communities: Church membership and crime, in the book: Understanding crime-currenttheory and research, travirhirschi and Michael Gorrefredson (editors), Beverly Hills, Sage publications, Inc, 198166ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، الصنيع، ذكره .

20 - Steven Stuck and Mary J.Kanavy, the effects of religion on forciblerape, Journal for the scientificstudy of religion, 1983, vol 22, pp.67-74167ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، الصنيع، ذكره .

21 - William Martin, Roligiosity and united states suicide rates (1972-1978), journal of clinical psychology, sept 1984, vol 40, pp.1166-1186167ص، م.س، التَّديُّن علاج الجريمة، صالح بن إبراهيم، الصنيع، ذكره .

هذا في الوقت الَّذي تُعالَج فيه مثل هذه الموضوعات في العالم العربيِّ والإسلاميِّ بصعوبة وحذر، وقد تجلب الخطر للباحث فيها[22].

4-1- تطوُّر الدِّراسات والأبحاث العربيَّة والإسلاميَّة في سيكولوجيَّة الدِّين:

إنَّ هذا العرض للدِّراستين اليتيمتين العربيَّتين والإسلاميَّتين، وكذا للدِّراسات الغربيَّة، وبالتَّحديد الأمريكيَّة، هَدَفْنا من ورائه إلى غير ما هدف إليه المؤلِّف الصنيع في بحثه عن التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ أثناء عرضه للتُّراث السَّابق في مجال بحثه؛ فقد كان هدفه هو بيان محدوديَّة ما سبق من دراسات لإعطاء مشروعيَّة للبحث الَّذي قام به، وإلَّا فما الفائدة من وراء بحثه؟ أمَّا ما هدفنا إليه نحن، فهو الإقرار بوجود مكوِّنات جنينيَّة لسيكولوجية الدِّين، حاولت الخروج مِمَّا هو تنظيريٌّ وتاريخيٌّ في مجال هذا الفرع العلميِّ (سيكولوجيَّة الدِّين والتَّديُّن) - كدراسة «الجنس في الإسلام» لعبد الوهاب بوحديبة[23]-، إلى ما هو ميدانيٌّ وإمبريقيٌّ؛ مثلما نجد ذلك في دراسة «السَّكن والجنس والإسلام» لعبد الصَّمد الدَّيالمي[24]، والخروج مِمَّا هو نظريٌّ تأصيليٌّ، وما أكثره! - كتلك الَّتي أنجزها عثمان نجاتي[25]، وتلك الَّتي ينجزها المعهد العالميُّ للفكر الإسلاميِّ[26]، وتلك الَّتي ينجزها عدَّة باحثين تحت مُسمَّى «علم النَّفس الإسلاميِّ»، وغيره من المسمَّيات، - إلى الميدان الواقعيِّ.

والحقُّ أنَّ المجال العلميَّ العربيَّ والإسلاميَّ، سيعرف بعد ما يقرب من إحدى عشرة سنة من إنجاز الباحث الصّنيع، تطوُّرات واضحة في الدِّراسات والأبحاث العلميَّة الَّتي تعالج موضوعات مختلفة في سيكولوجيَّة الدِّين، اضطرَّت مؤلِّف «التَّديُّن والسُّلوك الإجراميِّ» إلى أن يتَّبع طريقتين في كيفيَّة عرضها - نتيجة توفُّرها ووفرتها- في مؤلَّف آخَر له عنوانه «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة»[27] كالتَّالي:

الطَّريقة الأولى: دراسات عن التَّديُّن ومظاهر الصِّحَّة النَّفسيَّة؛
الطَّريقة الأخرى: دراسات عن التَّديُّن ومظاهر اختلال الصِّحَّة النَّفسيَّة.

وهذا بعد أن تمكَّن مِن جمع 70 دراسة ميدانيَّة، تعدُّ مرجعاً مناسباً لطلَّاب وطالبات الدِّراسات العليا والجامعيَّة وللباحثين بصورة عامَّة، منها 28 دراسة ميدانيَّة أجنبيَّة، و24 دراسة عربيَّة ميدانيَّة، و18 دراسة

22 - إضافة إلى مثال دراسات نوال السَّعداوي المصرية وفاطمة المرنيسي المغربية، نذكر هنا دراسة: ألفة يوسف التونسية، حيرة مسلمة في الميراث والزَّواج والجنسيَّة المثليَّة، تونس، دار سحر للنَّشر، ط3، 2008، ص8 (النُّسخة الإلكترونيَّة توجد في منتدى العقلانيّين العرب).

23 - Abdelwahab Bouhdiba, la sexualité en Islam, PUF, Paris, 1979

24 - Abdessamade Dialmy, Logement, Sexualité et Islam, Eddif, Casablanca, 1995

25 - نجاتي، محمَّد عثمان، الدِّراسات النَّفسانيَّة عند العلماء المسلمين، دار الشُّروق، القاهرة، 1993؛ والإدراك الحسِّيُّ عند ابن سينا: مبحث في علم النَّفس عند العرب، دار الشُّروق، ط3، 1978؛ والحديث النَّبويُّ وعلم النَّفس، دار الشُّروق، 1989؛ والقرآن وعلم النَّفس، دار الشُّروق، ط7، 2001

26 - (نجاتي) محمَّد عثمان، و(السَّيّد) عبد الحليم محمود (إشراف وتقديم)، علم النَّفس في التُّراث الإسلاميّ (3 أجزاء)، مؤلَّف جماعيٌّ «علم النَّفس في التُّراث الإسلاميّ»، دار السَّلام للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع والتَّرجمة - المعهد العالميُّ للفكر الإسلاميّ، القاهرة، 2008.

27 - الصنيع، صالح بن إبراهيم بن عبد اللَّطيف، التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة، الإدارة العامَّة للثَّقافة والنَّشر بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة، الرِّياض، 2000، ص104 وما بعدها.

محلِّيَّة (سعوديَّة)، اتَّبع فيها جميعها نفس طريقتي العرض آنفتَي الذِّكر؛ وذلك بعد أن زار بعض جامعات بلدان الولايات المتَّحدة الأمريكيَّة ومصر وسوريا والأردن.

وملاحظتنا عن الإسهام العربيِّ والإسلاميِّ في سيكولوجيَّة الدِّين أنَّ هذه الأخيرة لم تقارب ظواهر فعليَّة بجرأة كتلك الَّتي يدرسها الباحثون الغربيُّون، إمَّا بسبب غياب أدوات البحث، أو مجالات النَّشر، أو ما يُسمِّيه محمَّد أركون بـ«الأطر السُّوسيولوجيَّة للمعرفة»[28] الَّتي ليست متاحة بشكل كافٍ في العالم العربيِّ الإسلاميِّ وجامعاته ومؤسَّساته البحثيَّة؛ وإمَّا بفعل غياب الرَّوابط بين الجامعات العربيَّة الإسلاميَّة من حيث تبادل المعلومات عن الأطروحات والرَّسائل والمؤلَّفات؛ إذ لاحظنا أنَّ المؤلِّف الصنيع لم يذكر، ولو دراسة واحدة في موضوع سيكولوجيَّة الدِّين، من المغرب العربيِّ.

وفي الجملة، فإنَّ الجامعات العربيَّة، والدِّراسات المنجزة بها على مستوى الدكتوراه أو الماجستير، بدأت تنخرط في الاهتمام الدّوليِّ بسيكولوجيَّة الدِّين، كما أنَّ أدوات البحث فيها بدأت تتقدَّم إلى درجةِ ابتداع وابتكار مقاييس مُقنَّنة لقياس البُعد الدِّينيِّ والسُّلوك التَّديُّنيِّ، وترجمة واقتباس وتعديل مقاييس عالميَّة حضر فيها البُعد الدِّينيُّ هي كذلك[29]، وخاصَّة في مصر والسّعوديَّة والكويت، وقليلاً في فلسطين والجزائر[30]، وأقلَّ منها في المغرب[31].

1-5- التَّديُّن والإجرام: تحديدات إجرائيَّة واستقصاءات ميدانيَّة

إذا عُدْنا إلى دراسة الصنيع المذكورة، سنجد أنَّها جاءت لتعالج مشكلة مستوى التَّديُّن لدى مرتكبي السُّلوك الإجراميِّ من خلال التَّساؤل عن دلالة الفروق في مستوى التَّديُّن بين مجموعة الأفراد الَّذين مارسوا السُّلوك الإجراميَّ (المساجين)، ومجموعة الَّذين لم يمارسوا ذلك السُّلوك (غير المساجين)، وهو دور الدِّين في مقاومة السُّلوك الإجراميِّ[32]. ولذلك، جعلت من أولويَّاتها المنهجيَّة تحديد مصطلحات الدِّين والتَّديُّن كمفهومين رئيسين في هذه الدِّراسة، بعد أن وقفت بالتَّفصيل عند تاريخ الدِّين، والتَّدين وتأثيره في سلوك

28 - أركون، محمَّد، الفكر العربيُّ، ترجمة عادل العوَّا، منشورات عويدات، بيروت، ط3، 1985، (خاصَّة المقدِّمة؛ حيث بيَّن استلهامه لنتائج البحوث في العلوم الإنسانيَّة).

29 - نحيل، مرَّة أخرى، إلى الصَّفحات الَّتي قدَّمت تفاصيل المعطيات عن تلك الدِّراسات العربيَّة-الإسلاميَّة، وعن المقاييس الَّتي استعملتها كأدوات لبحوثها في رسائل الماجستير أو الماستر، وأطاريح الدُّكتوراه بالجامعات العربيَّة والإسلاميَّة؛ كماليزيا وأندونيسيا وغيرها، والَّتي تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، وكذلك تلك الَّتي في قائمة المصادر والمراجع بكتب سيكولوجيَّة الدِّين العربيَّة؛ مثل مؤلَّف الصنيع «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة»، مرجع سابق.

30 - اطَّلعْنا على أمثلة من هذه الدِّراسات لنيل شهادة الما جستير خاصَّة، في مواقع إلكترونية مختلفة لجامعات فلسطينية وجزائريَّة.

31 - من الأمثلة عن هذه الدِّراسات الأمبريقية الافتتاحيَّة في المغرب: السوسي بن سعيد، الصحة النفسية والتَّديّن، أطروحة دكتوراه، جامعة محمد الخامس، كلية علوم التربية، الرباط، 1996-1997؛ وزعيم سعيد، الاتجاهات الجنسيَّة وعلاقتها بالاتجاهات الدِّينيَّة لدى المراهقين المتمدرسين، رسالة لنيل دبلوم الدِّراسات العليا في علوم التَّربيَّة، جامعة محمَّد الخامس، كليَّة علوم التَّربيَّة، 1990. إلَّا أن الاجتهادات في هذا البلد نَحَتْ نحو التأصيل أكثر من الميدان.

32 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص ص141-142

الأفراد، ثمَّ العوامل المؤثِّرة في الدِّين على المستوى الذَّاتيِّ (الفطرة والنَّفس والأخلاق)، وعلى المستوى الموضوعيِّ (أي: عوامل التَّنشئة الاجتماعيَّة؛ من أسرة ورفاق ومدرسة ومعابد وجمعيَّات دينيَّة ووسائل إعلاميَّة...)[33].

يستهلُّ الصنيع دراسته بتعريفات للدِّين في عبارات أو جمل من مؤلِّفين غربيِّين اعتمد في اقتباس بعضها على مؤلَّف للدكتور عبد الله درَّاز «الدِّين: بحوث ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان»، وفي بعضها الآخَر على مؤلَّفات أصحابها، لكن من دون أن يتتبَّع منطق تبلورها، وكذلك يفعل مع التَّديُّن.. وكلُّ هذا في صفحتين ونصف فقط.

من أولى التَّعريفات[34] المذكورة للدِّين تعريف كانط بأنه الشُّعور بواجباتنا من حيث كونها قائمة على أوامر إلهيَّة.

وعرَّفه مايير Mayer بأنَّه جملة العقائد والوصايا الَّتي يجب أن توجِّهنا في سلوكنا مع الله ومع النَّاس وفي حقِّ أنفسنا.

وعرَّفه فرويد بأنَّه وهم ناتج عن تَكرار تجربة الطُّفولة من خلال عجز الإنسان عن مواجهة القُوى الغريزيَّة من داخله، وقوى الطَّبيعة في الخارج.

وعرَّفه يونغ بأنَّه وجود ديناميٌّ يمسك ويتحكَّم في الإنسانيَّة، الَّتي هي دائماً ضحيَّته أكثر من أن تكون خالقته.

أمَّا عن التَّعريفات اللُّغويَّة والشَّرعيَّة للإسلام، فيجملها المؤلِّف كالآتي:

يُعرِّفه «المعجم الوسيط» بأنَّه اسم جامع لجميع ما يُعْبَد به الله: الملَّة، الإسلام، الاعتقاد بالجنان والإقرار باللِّسان، وعمل الجوارح بالأركان.

ويعرِّفه القابسي بأنَّه نظر ينتهي إلى عمل، وأنَّ الدِّين ليس الإيمان فقط أو الإسلام وحده أو الإحسان والاستقامة والصَّلاح فحسب.. إنَّ الدِّين هو كلُّ ذلك مجتمعاً[35].

ويعرِّفه محمَّد عبد الله درَّاز بأنَّه «وضع إلهيٌّ يرشد إلى الحقِّ في الاعتقاد، وإلى الخير في السُّلوك والمعاملات»[36]...

---

33 - المرجع نفسه، ص15-26

34 - هذه التعريفات أوردها الصنيع في كتابه المذكور، ص ص147-148. وقد أخذها من كتاب محمد عبدالله دراز «الدين: بحوث ممهّدة لدراسة تاريخ الأديان»، دار القلم، الكويت، 1952، ص34-36

35 - جاءت هذه التعريفات في كتاب: الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص ص147-148

36 - نفسه. كما رجعنا إلى المرجع الذي أخذ منه الصنيع، وهو كتاب د. محمد عبد الله دراز، الموسوم بـ «الدين: بحوث ممهدة لتاريخ الأديان»، ص23

وهي كلُّها تعريفات لا تخرج عمَّا قاله الرَّسول صلى الله عليه وسلم: «الإسلام أن تعبدَ الله ولا تشرك به، وتقيم الصَّلاة، وتؤدِّي الزَّكاة المفروضة، وتصوم رمضان...»[37].

ثمَّ يثني بتعريفات للتَّديُّن كذلك في عبارات أو جمل على نفس الطَّريقة؛ أي ما قاله الغربيُّون، ثمَّ ما جاء في المراجع الإسلاميَّة.

وعرَّف فرنون Vernon التَّديُّن بأنَّه شكلٌ كلِّيٌّ لأنماط سلوكيَّة تشمل الأحاسيس والمواقف والعواطف... إلخ، وهي كلُّها تأتي على هيئة مجموعة، وتستجيب على أساس أنَّها كينونة بذاتها.

وعرَّف قاموس الميراث الأمريكيِّ The American Heritage Dictionary التَّديُّن Religiosity بأنَّه حالة كون الفرد مرتبطاً بدين.

وحدَّد روربوف وجيسر Rohrbaugh and Jessor التَّديُّن بأنَّه صفة للشَّخصيَّة تعود إلى توجُّهات عقليَّة معرفيَّة عن الحقيقة الواقعة وراء نطاق الخبرة والمعرفة، وعن علاقة الفرد بهذه الحقيقة. وهذه التَّوجُّهات موجَّهة ضمناً لكي تؤثِّر على الحياة الدُّنيويَّة اليوميَّة للفرد، وذلك بمشاركته في تطبيق الشَّعائر الدِّينيَّة.

أمَّا عن التَّعريفات الإسلاميَّة، فيذكرها الصنيع كالآتي:

في مؤلَّف «في ظلال القرآن» لسيِّد قطب للاستدلال على جَمْع التَّديُّن الاعتقاد والقول والعمل، والَّذي جاء فيه: «... النِّيَّة وحدها المضمرة في القلب لا يمكن أن تكون إسلاماً، وأنَّ هذه النِّيَّة ما لم تتحقَّق في أعماق محسوسة وسلوك واقعيٍّ [تديُّن]؛ فهي لا تساوي شيئاً في ميزان الواقع وميزان الله، وقد قال صلى الله عليه وسلم: ‹إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد، فاشهدوا له بالإيمان›»[38].

ثمَّ يُقدِّم تعريفين للتَّديُّن من عنده؛ الأوَّل عامٌّ نظريٌّ، والثَّاني خاصٌّ منهجيٌّ.

المعنى العامُّ مفاده: «التزام المسلم بعقيدة الإيمان الصَّحيح (بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرِّه، وظهور ذلك على سلوكه بممارسة ما أمره الله به، والانتهاء عن إتيان ما نهى الله عنه».

والمعنى الخاصُّ جاء فيه: «يقصد بمستوى التَّديُّن في هذه الدِّراسة: الحصول على درجة معيَّنة في مقياس التَّديُّن المعدِّ لهذه الدِّراسة». أمَّا عن التَّديُّن وتأثيره في السُّلوك، فيعود الصنيع إلى آدم أبي البشر، الَّذي عاد إلى دين ربِّه سريعاً بعدما أزلَّه الشَّيطان، وزيَّن له الأكل من الشَّجرة المحَّرمة: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} [البَقَرَة: 37]. وللتَّعبير عن أثر التَّديُّن، فإنَّ الصنيع يجسِّده في صبر أولي العزم من

37 - الحديث جاء في صحيح البخاري، الجزء الأول، ص18، المكتبة الإسلامية، إسطنبول، 1981

38 - جاءت هذه التَّعريفات، وغيرها، في الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص ص148-149 وما بعدها.

الرُّسل، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمَّد عليهم السَّلام، في دعوتهم لأقوامهم، وصبرهم على تحمُّل الأذى في ذلك، بمثل ما تجسَّد في نماذج بشريَّة من غير الرُّسل مثل سحرة فرعون الَّذين انقلبوا على فرعون بعد أن استقرَّ الإيمان في قلوبهم لَمَّا رأوا الآيات؛ فتحوَّلوا من طلب القرب والفوز بالرِّضا، إلى التَّحدِّي الأكبر للفرعون، إلى الرِّضا بالتعذيب الأليم (قطع الأعضاء والصَّلْب) حتَّى الموت.

وما يصدق على هؤلاء يصْدُق على جيل من المسلمين في بداية الدَّعوة تَعْرِضُ لهم كتب السِّيرة؛ كأبي بكر الصِّدِّيق وبلال بن رباح وآل ياسر، وكالرِّجال والنِّساء الَّذين جاؤوا -كلٌّ منهم في سياقه؛ كالرَّجل الَّذي أتى إلى النَّبيِّ يطلب التَّطهُّر بعد ارتكابه فعل الزِّنا دون أن يُكْرِهَه أحد على ذلك، وكالمرأة الَّتي تأبى أن تغشَّ النَّاس في بضاعة اللَّبن، مع أنَّ أمَّها تأمرها بذلك، ولكن خشية الله تمكَّنَت منها؛ فأطاعته في غياب الخليفة عمر بن الخطَّاب[39].

بعد هذا، يُحدِّد الباحث العوامل المؤثِّرة في الدِّين، منها ما هو ذاتيٌّ؛ كالفطرة القديمة، والنَّفس بأنواعها، والأخلاق بأشكالها؛ من صدق (مع الله، ومع النَّفس، ومع الآخَرين)، وأمانة، ووفاء (مع الله، ومع نفسه، ومع الغير)، وإخلاص، وتواضع. ومنها ما هو خارجيٌّ؛ كالأسرة والرِّفاق والمؤسَّسات التَّعليميَّة وأماكن العبادة والجمعيَّات ووسائل الإعلام... إلخ[40].

إلَّا أنَّه ينتهي بهذا الاستدراك، وهو أنَّ العوامل السَّابقة تلعب دورها الكبير في تديُّن الأفراد أو قد لا تلعب، ومع ذلك فإنَّ الحقيقة الَّتي لا جدال فيها هي أنَّ الفرد يكون متديِّناً بسبب هداية الله له لا بسبب ظاهر يهتدي إليه البشر، مصداقاً لقوله تعالى: {إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} [القَصَص: 56][41].

وباستثناء مرجعَين في الدِّين وتاريخه ودوره في البناء الاجتماعيِّ، وثلاثة أخرى في علم النَّفس الاجتماعيِّ[42]، فإنَّ المؤلِّف، في سعيه إلى التَّحديد الإجرائيِّ للدِّين والتَّديُّن، استند إلى مراجع في أغلبها إسلاميَّة كلاسيكيَّة، ولم يخرجْ عن التَّناول التَّقليديِّ للدِّين وللتَّديُّن في الإسلام. فقط ظهرت إضافته فيما قصده بمستوى التَّديُّن في دراسته، وهو الحصول على درجة معيَّنة في مقياس التَّديُّن الَّذي أعدَّه لهذه الدِّراسة؛ فكان بهذا إجرائيًّا، خاصَّةً وأنَّه ذَكَرَ الصُّعوبات الَّتي اعترضته في الحصول على مقياس يقيس مستوى التَّديُّن عند المسلمين، ويكون كافياً

39 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص33-37

40 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص39-59

41 - المرجع نفسه، ص ص58-59

42 - هذه المراجع هي: محمَّد عبد الله درَّاز، الدِّين: بحوث ممهِّدة لدراسة تاريخ الأديان، بدون ناشر ولا مكان ولا تاريخ النَّشر؛ ونبيل السَّمالوطي، الدِّين والبناء الاجتماعيُّ (ج2)، دار الشُّروق، 1981؛ وعادل الأشول، علم النَّفس الاجتماعيُّ مع الإشارة إلى إسهامات علماء الإسلام، مكتبة الأنجلو المصريَّة، القاهرة، 1979؛ وأحمد سلامة وعبد السَّلام عبد الغفَّار، علم النَّفس الاجتماعيُّ، دار النَّهضة العربيَّة، القاهرة، (بدون تاريخ). أمَّا الكتب الإسلاميَّة، وهي لسيِّد قطب، في ظلال القرآن، وصحيح البخاريّ، وصحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد بن حنبل، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، ومختصر سيرة الرَّسول صلى الله عليه وسلم لمحمَّد بن عبد الوهاب، والسِّيرة النبوية لابن هشام، والرُّوح لابن القيِّم، وسنن التِّرمذيّ، وخلق المسلم لمحمَّد الغزالي، والخليفة الزَّاهد عمر بن عبد العزيز لعبد العزيز سيِّد الأهل.

شافياً، وفي نقده للمقاييس الإنجليزيَّة الَّتي تدرس السُّلوك الدِّينيَّ من منظار مغاير للمنظار الإسلاميِّ؛ ممّا حدا به إلى بناء مقياس خاصٍّ لقياس مستوى التَّديُّن لدى المسلمين، بناه من خلال التقائه بالمتخصِّصين في العلوم الشَّرعيَّة بخصوص المضمون، وبالمتخصِّصين في علم النَّفس وعلم التَّربية وعلم الاجتماع -على ما يبدو في المواصفات الواجب توفُّرها في المقياس-، ثمَّ قراءة كتُب الأحاديث النَّبويَّة السِّتَّة حول الإيمان والإحسان والعبادات والمعاملات والسلوكيات، وكتُب السَّلف الَّتي تناولت نفس الموضوعات، وكذلك كتُب علم النَّفس في موضوع التَّديُّن وقياسه. وبعد ذلك بناء المقياس وطباعته، ثمَّ عرضه على المحكِّمين، وتطبيقه على عيِّنة تجريبيَّة، وتعديله وإعادة تجريبه، ثمَّ طبعه نهائيَّاً، ودراسة ثباته وصدقه[43]، إلَّا أنَّ مضامينه ظلَّت تقليديَّة، ولم تُراعِ الواقع؛ كما سنرى في التَّعليق على مقياس الصنيع، ونقده فيما بعد.

أمَّا عن نتائج البحث الَّتي توصَّل إليها المؤلِّف فهي كالآتي:

- تأكَّدَ له أنَّ هناك علاقة سالبة دالَّة إحصائيَّاً بين مستوى تديُّن الأفراد وبين سلوكهم الإجراميِّ؛ أي كلَّما ارتفع مستوى التَّديُّن كلَّما انخفض احتمال وقوع الفرد في سلوك إجراميٍّ؛

- وتَأَكَّدَ له أن الأفراد العاديِّين أعلى تديُّناً من الأفراد المساجين؛

- كما تأكَّد له أنَّ هناك أثراً إيجابيَّاً للتَّديُّن على خفض السُّلوك الإجراميِّ لدى الأفراد.

وأشار، في المآل، إلى الصُّعوبات الَّتي اعترضته، ومن بينها نَدرة المقاييس الَّتي تقيس جانب السُّلوك الدِّينيِّ (التَّديُّن) بالعربيَّة، والخاصَّة بالمسلمين؛ إذ في الزَّمن الَّذي أجرى فيه البحث، لم يستطع الحصول إلَّا على ثلاثة مقاييس، هي: مقياس السُّلوك الدِّينيِّ لنزار الطَّائيِّ[44]، ومقياس الاتِّجاه الدِّينيِّ لعبد الحميد محمَّد نصَّار[45]، ومقياس القيمة الدِّينيَّة لمحمود أبي النِّيل وسيِّد عبد العال[46].

كما اقترح توصيات، من بينها ضرورة الاهتمام الكبير بالجانب الدِّينيِّ في تربية الأفراد وجعله القاعدة الأساسيَّة الَّتي تتفرَّع منها وتُبنى عليها مختلف جوانب شخصيَّات الأفراد منذ الصِّغر، عن طريق الأسرة والمدرسة والحيِّ والمسجد وبقيَّة المؤسَّسات لوقايتهم من الانحراف والجريمة. أمَّا ملاحظتنا، فهي أنَّه لم يُبيِّن نوع هذه التَّربية الدِّينيَّة والتَّنشئة الإسلاميَّة، هل هي وسطيَّة معتدلة أم متطرِّفة متشدِّدة؟ وهل هي عقلانيَّة متفتِّحة أم نصِّيَّة حرفيَّة متزمِّتة؟ كما أنَّ جعل الجانب الدِّينيِّ وحده القاعدة الأساسيَّة في تربية الأفراد من شأنه أن يتحوَّل إلى سلاح في يد بعض الجماعات المتطرِّفة لخدمة إيديولوجيَّاتها الهدَّامة، مثلما حصل في كثير

43 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص175-192

44 - الطَّائيُّ، نزار مهدي، مقياس السُّلوك الدِّينيّ، شركة الربيعان للنَّشر والتَّوزيع، الكويت، 1985

45 - عبد الحميد محمَّد نصَّار، بعض المتغيّرات الشَّخصيَّة والاجتماعيَّة المرتبطة بالاتِّجاه الدِّينيّ، دراسة عبر حضاريَّة، رسالة دكتوراه منشورة، المنصورة، جامعة المنصورة، 1988

46 - سيِّد، عبد العال، ديناميَّة من العلاقة بين القيم والطُّموح، رسالة دكتوراه غير منشورة، كليَّة الآداب، جامعة عين الشمس، 1977

من البلدان العربيَّة والإسلاميَّة وحتَّى الغربية؛ في حين أنَّ المطلوب هو التَّوازن بين تربية دينيَّة وأُخرى جماليَّة وأُخرى علميَّة وأُخرى جسديَّة، وهكذا.

من التَّوصيات الَّتي قدَّمها الصنيع كذلك، ضرورة توجيه اهتمام مراكز البحوث في الجامعات وغيرها لدراسة موضوع التَّديُّن وعلاقته بكافَّة جوانب الشَّخصيَّة على أسس سليمة من الكتاب والسُّنَّة وتراث السَّلف، مع الاستفادة من معطيات العلم الحديث الَّتي لا تتعارض مع أحكام الإسلام ومفاهيمه[47]، لكنَّنا نرى أنَّه إذا كان من الحسن مطالبة مراكز البحوث الجامعيَّة بدراسة موضوع التَّديُّن وعلاقته بكافَّة جوانب الشَّخصيَّة، فإنَّ الأمر الَّذي يدفع إلى الحيطة والتَّحفُّظ هو الاستفادة من معطيات العلم الحديث الَّتي لا تتعارض مع أحكام الإسلام ومفاهيمه؛ ذلك أنَّ الإسلام لا يتوفَّر على أحكام ومفاهيم جامدة صلبة ونهائيَّة إلى الأبد. على العكس من ذلك، إنَّ أحكامه ومفاهيمه حيَّة وديناميَّة ومُتحرِّكة نظراً للطَّابع العالميِّ للإسلام؛ ما يجعله قادراً على التَّكيُّف مع الأزمنة والأمكنة والبشر. فليس إسلام اليوم في كثير من البلدان الإفريقيَّة والآسيويَّة والأوروبية والأمريكيَّة هو إسلام القرن الأوَّل الهجريِّ في مكَّة والمدينة وباقي المناطق من الجزيرة العربيَّة، كما أنَّ أحكام الفقهاء تتغيَّر من قطر إلى قطر(فأحكام الشَّافعيِّ في العراق ليست هي أحكامه في مصر).ولذلك، فلا يمكن للبحث العلميِّ أن يخضع مسبقاً لأيِّ سلطة سوى سلطة البحث عن الحقيقة وانتهاج الموضوعيَّة. إنَّ البحث السِّيكولوجيَّ - كغيره- يتصدَّى لكل الموضوعات الَّتي تدخل في نطاق اختصاصه واهتماماته دون أن يكترث لعلاقتها بالدِّين -. ألم تكن العلوم الَّتي تعامل معها المسلمون الفاتحون لا تمتّ بصِلَةٍ إلى دينهم، ولكنَّهم ترجموها وقرأوها وفهموها وتمثَّلوها ثمَّ أنتجوا على منوالها وأبدعوا في ذلك؛ كالفلسفة والرِّياضيَّات والكيمياء وعلم النَّبات والفلك؟

إنَّ مهمَّة عالم النَّفس - من ضمن مهامّ أُخرى- هي دراسة العلاقات بين التَّديُّن ومتغيِّرات أخرى لمعرفة نوع الارتباط بينها. وهنا لا بُدَّ من أن نفرِّقَ بين الدِّين كنظام اعتقاد، ونسق أخلاق، ومنظومة معاملات تتَّسم بالكمال والمثال والاتِّساق - ونضرب هنا المثال بالدِّين الإسلاميِّ، الَّذي قال فيه تعالى: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً} [المَائدة: 3]-، وبين التَّديُّن كسلوكيات وأفعال ومعاملات لأفراد وجماعات تنتمي إلى دين معيَّن، مشروطة بنوع شخصيَّتهم، وبمحدِّدات جماعتهم، وبظروف نشاطهم الاقتصاديِّ، والإكراه السِّياسيِّ الَّذي يخضعون له، ثمَّ انعكاس ذلك على وعيهم، وتمظهر ذلك في تصرُّفاتهم. ويُضحي التَّديُّن هو الواقع، في مقابل الفكر الَّذي هو الدِّين، وهو المتغيِّر في مقابل الثَّابت الَّذي هو الدِّين، وهو المعيش المحايث في مقابل المثاليِّ المتعالي الَّذي هو الدِّين، وفي كلمة واحدة: هو التَّاريخ الفعليُّ الجاري بأحداثه البشريَّة النَّاقصة والمعطوبة والمحكومة بمصالح وأوهام، في مقابل الدِّين الَّذي هو القيمة العليا والصُّحف المطهَّرة والكتب القيِّمة الَّتي تأمر بالعدل، وتهدي إلى صراط مستقيم. وشتَّان بين الأفعال الجارية، وبين القِيَم

47 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م. س، ص314

العليا! فالتَّديُّن هو الشَّرط الإنسانيُّ؛ كما تحقَّق في سلوكيات الأفراد وتاريخ الجماعات، وليس هو الدِّين، كما كَمُل في نصوص ما ينبغي أن يكون من المثاليَّات.

على أنَّ هناك توصية أُخرى وأخيرة قدَّمها الصنيع، تتعلَّق بالتَّأصيل الإسلاميِّ لموضوعات البحث والدِّراسة، يقول فيها: «نظراً لقلَّة الموضوعات المبنيَّة على التَّأصيل الإسلاميِّ الَّتي يتناولها معظم طلَّاب الدِّراسات العليا وأساتذة العلوم الاجتماعيَّة، يوصي الباحث بتوجيه اهتمام أقسام العلوم الاجتماعيَّة في الجامعات بضرورة ربط موضوعات الدِّراسة والبحث الَّتي يتقدَّم بها الطُّلَّاب أو الأساتذة، بالمفاهيم الإسلاميَّة المأخوذة من المصادر الإسلاميَّة الأساسيَّة، حتَّى يشارك الجميع في عمليَّة إعادة البناء لتلك العلوم على الأسس الإسلاميَّة»[48].

هذه التَّوصية تثيرُ من الإشكالات ما تثير:

فمن جهة، إذا كان المقصود بـ «التَّأصيل» هو الانفتاح على البُعد العالميِّ للإسلام وثقافته وقيمه - بالكيفيَّة الَّتي سار عليها مفكِّرون وباحثون؛ أمثال هيغل الَّذي أورد نصَّاً لجلال الدِّين الرُّوميِّ صدَّر به كتابه «أنسيكلوبيديا العلوم الفلسفيَّة»[49]، ونيتشه الَّذي كان يعدُّ الإسلام ديناً للرُّجولة والصَّرامة؛ فأُعجب به مقارنة بغيره، وخاصَّة المسيحيَّة[50]، وجوته «الَّذي كتب الدِّيوان الشَّرقيَّ والغربيَّ»، وعبد الرَّحمن بدوي الَّذي كتب «الإنسانيَّة والوجوديَّة في الفكر العربيِّ»، وخصَّص فصلاً للمعنى الإنسانيِّ لرسالة النَّبيِّ[51]، ومحمَّد أركون الَّذي كتب عن أهمِّيَّة الرسول في كتابه «الفكر العربي»، وعن قيمة «النَّزعة الإنسانيَّة في الفكر العربيِّ»، متَّخذاً من مسكويه والتَّوحيديِّ نموذجَين لها، ومحمَّد عزيز الحبابي الَّذي كتب عن «الشَّخصانيَّة الإسلاميَّة» و«أزمة القِيَم»...-، فإنَّ مثل هذا التَّأصيل مطلوب، وداخله علم النَّفس الإسلاميُّ، مثلما يجوز الحديث عن الفلسفة الإسلاميَّة، وعن التَّصوُّف الإسلاميِّ، والعلوم والجماليَّات عند العرب.

إنَّ علم النَّفس علم إنسانيٌّ، وهو حين يشتغل على التَّديُّن، يفعل ذلك من منطلق أنَّ هذا الأخير مجال مثل مجالات أُخرى، كالتَّربية والأسرة والشُّغل والرِّياضة والعسكر والاجتماع والمرض والإجرام... إلخ؛ أي يدرس الظَّواهر والعلاقات داخل كلِّ مجال من أجل فهمها وتفسيرها، ويستحضر متغيِّرات أفراد العيِّنة المبحوثة؛ من سنٍّ وجنس ومستوى تعليميٍّ ومستوى دخل وممارسة دينيَّة، ونوع اعتقاد، وتحزُّب سياسيٍّ... إلخ، بحسب البيانات الَّتي يودُّ الحصول عليها، والمقارنة بينها. وعندما يتعلَّق الأمر بالدِّراسات المقارنة، أو بالدِّراسات عبر الحضاريَّة، فإنَّ متغيِّرات الدِّين - كالانتماء إلى عقيدة معيَّنة وعدم الانتماء، وممارسة الشَّعائر أو عدم

48 - المرجع نفسه، ص315

49 - هو النَّصُّ الَّذي افتتح به الدكتور زكريَّا إبراهيم مؤلَّفه، مشكلة الحُبّ، مكتبة مصر، ط2، الفجالة، 1970

50 - شاهين، أنيس، نقد كتاب «نيتشه نبيُّ التَّفوُّق»، مجلَّة الفكر العربيّ، معهد الإنماء العربيّ، بيروت، العدد 47، السَّنة 8، آب/ أغسطس 1987، ص ص258-263

51 - بدوي، عبد الرَّحمن، الإنسانيَّة والوجوديَّة في الفكر العربيّ، وكالة المطبوعات، ودار القلم، الكويت، بيروت، 1982، ص ص145-160

ممارستها، والتَّديُّن الجوهريِّ أو السَّطحيِّ، والتَّديُّن المعتدل أو المتشدِّد، والتَّديُّن العقلانيِّ أو المتحجِّر، والتَّديُّن المسالم أو الإرهابيِّ...- تصبح مؤشِّرات لازمة للتَّحليل.

ومن الأمثلة على ذلك وضعيَّة المهاجرين المسلمين في الغرب، وصعوبة توافقهم النَّفسيِّ والاجتماعيِّ مع مجتمعات الاستقبال نظراً للاختلافات الدِّينيَّة (كشرب الخمر، وأكل الخنزير، والحرِّيَّة الجنسيَّة، والإفطار في رمضان، وصعوبة الاحتفال بالمناسبات الدِّينيَّة؛ كعيد الفطر وعيد الأضحى وعيد المولد النَّبويِّ...إلخ)؛ ما يخلق لديهم تمزُّقاً نفسيّاً وهُويَّاتيّاً، يُظهر أثر التَّنشئة الدِّينيَّة الأولى في شخصيَّة المهاجرين المسلمين. وكذلك وضعيَّة الصِّراع الإيديولوجيِّ بين الجماعات الإرهابيَّة الَّتي تتغطَّى بغطاءٍ إسلامويٍّ، مع مؤسَّسات الدَّولة والمجتمع في بلاد الغرب الَّتي هم مهاجرون داخلها، ويحملون جنسيَّتها بفعل ولادتهم فيها، ولو أنَّهم من والدين مسلمَين.

تعليق وتقييم:

إذا كان المؤلِّف صالح بن إبراهيم الصنيع - ومن سار على نهجه من الباحثين- قد راهن على دور التَّديُّن الإسلاميِّ في الحدِّ من السُّلوك الإجراميِّ لدى الأفراد بالمجتمع العربيِّ الإسلاميِّ- والسُّعوديِّ خاصَّة- فهل ستظلُّ فرضيَّته/رهانه متمتِّعة بالصِّحَّة أمام ظواهر تديُّن الأفراد المتطرِّفين وتديُّن الجماعات الماضويَّة الجامدة، والجماعات المذهبيَّة الإرهابيَّة داخل البلاد العربيَّة والإسلاميَّة وخارجها؟

في ظنِّنا، كانت الميزة الكبرى لهذا المؤلِّف هي خروجه من الكلام النَّظريِّ عن التَّديُّن إلى إعداد مقياس للتَّديُّن، بغرض فهم سيكولوجيَّة السُّجناء الدِّينيَّة. وقبل أن نقول كلمتنا في هذا المقياس، لنقدِّمه أوَّلاً كما قدَّمه صاحبه[52].

يتكوَّن المقياس من ستِّين عبارة، لكلِّ عبارة ثلاثة خيارات/ أجوبة، ولكلِّ خيار درجة أو درجتان أو ثلاث درجات، رُتِّبَت لتكون الدَّرجات تصاعديَّة لبعض العبارات، وتنازليَّة لعبارات أخرى لتقليل قيمة عامل الإجابة العشوائيَّة، وقد غطَّت عبارات المقياس الموضوعات التَّالية:

1- أركان الإيمان: الله، والملائكة، والكتب، والرُّسل، واليوم الآخر، والقدر خيره وشرُّه؛

2- أركان الإسلام: الصَّلاة، والزَّكاة، والصَّوم، والحجُّ؛

3- شُعَب الإيمان: وتنقسم إلى قسمين:

---

52 - الجدير بالملاحظة أنَ إبراهيم الصنيع لم يورد هذا المقياس في ملحق مؤلَّفه، الَّذي اتَّخذناه متناً للتَّحليل في هذا الفصل، مع أنَّه أسهب في ذكر الخطوات الَّتي كانت وراء إعداده، وإنَّما بحثنا عنه في البحوث المنشورة في الشَّبكة العنكبوتيَّة (الإنترنت): د. صالح بن ابراهيم الصنيع، «قياس التَّديُّن»، بحث منشور في موقع: الإسلام اليوم Islam today net.html، بتاريخ 26 كانون الثاني/ يناير 2010 (اطَّلعنا عليه بتاريخ: 1 أيار/مايو 2018)، وفيه عثرنا على مقياس التَّديُّن في الملحق.

3-1- قسم الواجبات، ويتضمَّن محبَّة الرَّسول عليه السَّلام، والعمرة، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، وطاعة الوالدين، وصلة الأرحام، والزَّواج، وأداء الشَّهادة، والوفاء بالعهد، وحقَّ الجار.

3-2- قسم المنهيَّات، ويتضمَّن مدخل الزِّنا، والرِّبا، والخمر، والرَّشوة، والسَّرقة، واليمين الغموس، والكذب، والظُّلم، والكسب المشبوه، والتَّشبُّه بالكفَّار، وتشبُّه الرَّجل بالمرأة، والخيانة، والرِّياء، والنَّميمة.

أمَّا كلمتنا بخصوص المقياس، فهي كالتَّالي:

- لَمَّا صاغ المؤلِّف العبارة رقم 59 الَّتي تقول: «عندما يتحدَّث شخص عن أمور الدِّين» ووضع لها الاختيارات الثَّلاثة: «أنصرف عنه، أستمع إليه قليلاً ثم أنصرف، أستمع إليه حتَّى ينتهي»؛ فإنَّه دون وعي منه، يحيل على مجتمع دينيٍّ ثيوقراطيٍّ، يكون على الأفراد فيه أن يُنصتوا إلى شخص يتحدَّث عن أمور الدِّين إلى أن ينتهي، حتَّى نستطيع أن نحكم على مستوى تديُّنهم بالارتفاع. كما أنَّه لم ينتبه إلى أنَّ النَّاس يُصنَّفون بحسب نوع القيمة السَّائدة لديهم كما وضح ذلك ألبورت، فهناك ذو القيمة الاقتصاديَّة، وذو القيمة التَّجريديَّة، وذو القيمة الجماليَّة، وذو القيمة الدِّينيَّة... إلخ[53].

- المشكلة نفسها تعترضنا في العبارة رقم 58 التي تقول: «الموسيقى والأغاني: أسمعها كثيراً، أسمعها أحياناً، أبتعد عن سماعها»؛ فهي قد توقعنا في مأزق تحريم الفنِّ وتذوُّقه. في حين أنَّ تشجيع الفنون الجميلة يرقى بذوق الشَّباب، وبتعلُّمهم. والتَّاريخ ينبئنا أنَّ الرَّسول أمر أن تُصحب العرائس بالغناء والطَّرب، وأنَّه سمح للأحباش بالرَّقص في مسجده الشَّريف، ولعائشة بالتَّفرُّج عليهم. ولقد انتبهت المملكة العربيَّة السُّعوديَّة عام 2018 إلى أهمِّيَّة الانفتاح؛ ففتحت أوَّل قاعة للعرض السِّينمائيِّ بمدينة الرِّياض، وكان أوَّل فيلم عُرِضَ فيها أمريكيّاً، كما أعدَّت مُخطَّطاً لفتح قاعات للعروض السِّينمائيَّة قد يبلغ عددها ثلاث مئة وخمسين قاعة[54]، بل وانفتحت على الفنِّ الغربيِّ، واستقدمت فرقة موسيقيَّة من إسبانيا إلى إحدى منصَّات حديقة من حدائق العاصمة الرِّياض.

- والملاحظة عينها نسوقها في شأن العبارة 49 الَّتي تقول: «شَعْر اللِّحية: أتركه ولا آخذ منه شيئا، أحلق بعضه، أحلقه كلَّه»، والَّتي لا تقيس مستوى التَّديُّن الصَّحيح، بل مستوى التَّديُّن الشَّكليِّ أو العَرَضيِّ. أمَّا التَّديُّن الجوهريُّ والعميق، فلا يأبه بشَعر اللِّحية. فكثير من المخالفين في الملَّة الإسلاميَّة يرْخُون اللحى، ويجزُّون الشَّوارب، وكثير من المنافقين والأُمِّيِّين ممَّن ينتمون إلى الإسلام يفعلون نفس فعلهم ليتاجروا بالدِّين، ويبيعوا للنَّاس سلعاً مغشوشة أمام أبواب المساجد بكثير من المدن الإسلاميَّة، وهم إنَّما يُدخلون ذلك في مستلزمات

53 - Gordon Allport, Structure et développement de la personnalité, trad. franc, de lachaux et Niestlé, 1970

54 - Information de Medi 1 radio du maghreb et de la méditérannée, Novembre 2019

الدِّيكور للضَّحك على النَّاس. ويكفي أنَّ المؤلِّف في كتابه عن «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة» أشار، من ضمن ما أشار إليه، إلى بحث عربيٍّ يدرس موضوع التَّديُّن المظهريِّ والتَّديُّن الجوهريِّ لدى طلبة الجامعة بمصر[55].

زِدْ على هذا أنَّه إذا كان من المحمود اتِّباع سُنَّة الرَّسول عليه السَّلام، فإنَّ الأحمد هو العمل بها بصدق وحقٍّ لا بمظهر وشكل؛ لأنَّ الله ينظر إلى القلوب والأعمال، لا إلى الوجوه والأجسام.

- كذلك جاء في العبارة 48 عن «الاشتراك في الجهاد: أشارك بكلِّ ما أملك، أشارك بالمال لمساعدة المجاهدين؛ أشارك بالنُّصح والمشورة للمجاهدين»، وهي عبارة ينبغي أن يُعاد النَّظر فيها داخل هذا المقياس الَّذي يُقدَّم لمبحوثين شباب ومراهقين؛ لأنَّ الجهاد ليس شأناً فرديّاً وإلَّا تحوَّل إلى إرهاب مثلما حصل في بقاع من العالم الإسلاميِّ كأفغانستان في ثمانينات القرن الماضي وسوريا والعراق في العشريَّة الثَّانية من القرن الحادي والعشرين، حيث تمَّ استقطاب جحافل من الشَّباب والمراهقين للجهاد في سوريا والعراق وغيرهما من مناطق العالم الإسلاميِّ، وجَمْعُ مبالغ ماليَّة خياليَّة لتسليحهم وتدريبهم؛ لخوض حروب إرهابيَّة تحت مسمَّى «الجهاد».

إنَّ «الحرب المشروعة» من شأن الدُّول لا من شأن الأفراد ولا الجماعات، ما دام لكلِّ دولة رئيس وبرلمان وحكومة ووزارة دفاع أو حرب؛ فهي المسؤولة عن الحرب لَمَّا تُستباح حدودها، أو يقتل مواطنوها، أو تُهان رموزها المقدَّسة... إلخ، بعد أن تكون قد حاولت مع أعدائها بكلِّ الوسائل القانونيَّة المتعارَف عليها دَوليّاً في محكمة العدل الدّوليَّة، ومجلس الأمن الدّوليِّ، والمنظَّمات التَّابعة للأمم المتَّحدة.

- من العبارات المثيرة للجدل في هذا المقياس العبارة رقم 23، ومنطوقها: «أخذ الرِّبح على المال من البنوك: أتجنَّبُه، أجد فيه بعض الفائدة، أجده مناسباً للحياة العصريَّة»؛ لأنَّها من ضمن العبارات الَّتي تُمزِّق فكر ووُجدان وسلوك الإنسان المسلم على طول العالم العربيِّ الإسلاميِّ، وعرض العالم الغربيِّ وغيره.

ويتجلَّى ذلك في أنَّ لكلِّ دولة إسلاميَّة وزارة ماليَّة، وبنكاً مركزيّاً، وبُنوكاً فرعيَّة، يضع فيها مواطنوها أموالهم حتَّى لا تُنهَب، ويحصّلون منها أموالهم كموظَّفين في قطاعات هذه الدُّول، بما فيها قطاع وزارات الأوقاف والشُّؤون الدِّينيَّة، ومع كلِّ هذا تتمُّ زعزعة وجدان وفكر وسلوك المواطنين بمفارقات دينيَّة؛ من قبيل أنَّ التَّعامل مع هذه البنوك حرام بسبب الرِّبا، هذا في الوقت الَّذي لم تُهيِّئ هذه البلدان للمواطنين أيَّ صيغ أُخرى للتَّعامل الماليِّ الحلال! بل إنَّ ما يُسمَّى بـ «البنوك الإسلاميَّة أو التَّشاركيَّة»، في بعض البلدان الإسلاميَّة، ما هي إلَّا صورة أخرى للبنوك التَّقليديَّة.. هي الأخرى تقرض المال لشراء الدُّور أو السَّيَّارات أو غيرها مقابل فوائد، وتوظف موظَّفين ومستخدمين في تلك البنوك مقابل أجر تستخرجه من أموال المتعاونين معها. وقد

---

55 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة»، م. س، ص139 وما بعدها. الدِّراسة رقم 22 للباحثين محمَّد غلَّاب ومحمَّد الدُّسوقي: دراسة نفسيَّة مقارنة بين المتديّنين جوهريّاً والمتديّنين ظاهريّاً في الاتِّجاه نحو العنف وبعض خصائص الشَّخصيَّة، واللَّذين استخدما فيها، من ضمن ما استخدما، مقياساً للتَّوجُّه الدِّينيّ في صورتين؛ الأولى للمسلمين، ويتكوَّن من مقياس التَّوجُّه الدِّينيّ الظَّاهر (17 عبارة)، ونفس العدد لمقياس التَّوجُّه الدِّيني الجوهريّ، والصُّورة الثَّانية للمسيحيّين.

يطرح المواطن المسلم المشتغل بالبنوك التَّقليديَّة هذه الأسئلة: هل أنا مسلم؟ هل أَجري حرام؟ هل ما أُعيل به أبنائي حرام؟ هل الصَّلاة الَّتي أُقِيمها داخل البنك مردودة غير مقبولة؟... إلخ.

وفي الجملة، ينبغي لعلماء الأمَّة أن يبحثوا هذه الأمور البنكيَّة وغيرها بمنطق العصر، وبمستجدَّات الواقع ليَقوا المؤمنين غائلة الفتن والتَّمزُّق. فكلُّ البنوك في بلاد الإسلام تبيع العملة بالرِّبح، وتشتريها بالرِّبح لصالحها لا لصالح المواطن المسلم، حتَّى ولو كان سيصرفها في واجبات الحجِّ بالدِّيار المقدَّسة... وقِسْ على ذلك العبارة 45 عن تصوير الكائنات الحيَّة... إلخ[56].

وأمَّا كلمتنا الأخرى، فتخصُّ التَّوصية الخامسة من توصيات الدِّراسة، والَّتي جاء فيها: «نظراً لقِلَّة الموضوعات المبنيَّة على التَّأصيل الإسلاميِّ، الَّتي يتناولها معظم طلَّاب الدِّراسات العليا وأساتذة العلوم الاجتماعيَّة، يوصي الباحث بتوجيه اهتمام أقسام العلوم الاجتماعيَّة في الجامعات بضرورة ربط موضوعات الدِّراسة والبحث الَّتي يتقدَّم بها الطُّلَّاب أو الأساتذة بالمفاهيم الإسلاميَّة المأخوذة من المصادر الإسلاميَّة الأساسيَّة، حتَّى يشارك الجميع في عمليَّة إعادة البناء لتلك العلوم على الأسس الإسلاميَّة السَّليمة»[57].

وفي الحقيقة، فهذا إشكال يستحقُّ بمفرده فصلاً كاملاً لنُبيِّن تشابك مختلف جوانبه. فالكاتب لا يعدُّ نفسَه مجرَّد باحث محايد، وإنَّما يسلك كباحث مناضل، يطمح إلى وضع المتخصِّصين في العلوم الإنسانيَّة والاجتماعيَّة أمام مسؤوليَّة القيام بواجب التَّأصيل الإسلاميِّ لتخصُّصاتهم، وأن يقدِّموا لطلَّاب المسلمين محتوىً مبنيًّاً على أصول إسلاميَّة، ومُستفيداً مِمَّا لدى غير المسلمين ممَّا لا يتعارض مع الأصول الإسلاميَّة. لم يقف المؤلِّف الصنيع عند الدَّعوة النَّظريَّة إلى هذا الَّذي يُسمِّيه تأصيلاً، ولكنَّه انتقل إلى التَّطبيق بإنجازه دراسة تأصيليَّة في علم النَّفس عن ثلاثة من علماء الإسلام بالمعنى التَّقليديِّ. تتغيَّا هذه الدِّراسة إبراز عطاءاتهم في مجال سيكولوجيَّة الدِّين، هم: ابن الجوزيِّ، وابن تيمية، وابن قيِّم الجوزيَّة، وذلك بتقديم ترجمة لكلِّ واحد منهم ثمَّ عرض آرائه في الموضوعات المتعلِّقة بالصِّحَّة النَّفسيَّة والتَّديُّن، وذلك في إطار التَّعامل مع التُّراث الإسلاميِّ الَّذي حدَّد له ثلاث مراحل هي: مرحلة الإبراز ومرحلة التَّوظيف ثمَّ مرحلة الإبداع؛ ليخرج من كلِّ هذا بنموذج بنائيٍّ للصِّحَّة النَّفسيَّة -من منظور إسلاميٍّ- بعد أن انتقد النَّموذج الغربيَّ وأهمَّ مُسلَّماته كتطوُّر الإنسان عن الحيوان، واستبعاد العوامل الرُّوحيَّة عن قصد، والإيمان بالحتميَّة النَّفسيَّة، وعزل الإنسان عن قدرة الله، وحصر مصدريْ

56 - في هذا الصَّدد، نُحيل إلى الدِّراسة المهمَّة الَّتي أنجزها، منذ ثلاثين سنة، حسين أحمد أمين، تحت عنوان: «دليل المسلم الحزين» (ط3)، و«حول الدَّعوة إلى تطبيق الشَّريعة الإسلاميَّة»، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط2، 1987، ص141 وغيرها، لمناقشة مشكل تحريم التَّصوير.

57 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، التَّديُّن علاج الجريمة، م.س، ص315

المعرفة في العقل والحواسِّ، وقصر الغاية على تحصيل السَّعادة الدُّنيويَّة، وانتهاج المنهج التَّجريبيِّ، باعتباره المنهج الموضوعيَّ، واقتصاره على الواقع الغربيِّ كمقياس نموذجيٍّ[58].

أمَّا ما يُسمِّيه «مسلَّمات التَّأصيل الإسلاميِّ»، فيُجْمِلها في التَّوحيد، وتحديد أصل الإنسان في الخلق من آدم، والإيمان بمكوِّنين للإنسان: الجسد والرُّوح، وتعيين الغاية من وجود الإنسان في العبادة، ووظيفة الإنسان؛ أي الخلافة وعمارة الأرض بما يرضي الله، ومصدر المعرفة هو الله، ومجالهما هما عالم الغيب وعالم الشَّهادة، ثمَّ مسلَّمة وحدة الحياة الدُّنيا والآخِرة من الميلاد إلى الدُّنيا إلى البرزخ (القبر) إلى الآخِرة (الخلود)، ثمَّ السُّنن الكونيَّة من ليل ونهار وشمس وقمر... إلخ، ثمَّ السُّنن الاجتماعيَّة الَّتي ترفع الأمم (التَّوحيد)، أو تهوي بها (الشِّرك). وينتهي إلى أنَّ هذه «هي أهمُّ المسلَّمات الَّتي يرى لزوم اهتمام علماء النَّفس المسلمين بها عند كتابة بحوثهم ودراساتهم، حيث تظهر في محتويات تلك البحوث والدِّراسات كبديل عن المسلَّمات الموجودة لدى الباحثين غير المسلمين»[59].

والحال أنَّه ختم بحثه بتقديم نموذج بنائيٍّ للصِّحَّة النَّفسيَّة اعتمد فيه التَّقسيم الغربيَّ لمراحل الطُّفولة، والبلوغ والمراهقة، والرُّشد، والشَّباب، والكهولة، في الجوانب الجسميَّة والرُّوحيَّة والعقليَّة والانفعاليَّة والاجتماعيَّة. ولم تكن الأساليب الإسلاميَّة في الوقاية والعلاج من المشكلات إلَّا بعضاً من عناصر مقترحات أولئك العلماء الإسلاميِّين (ابن الجوزيِّ، ابن تيمة، وابن قيِّم الجوزيَّة)، وأهمُّها الإيمان والعبادات وقراءة القرآن والذِّكر والدُّعاء والتَّوكُّل والاستقامة والتَّوبة والاستغفار والصَّبر والتَّفقُّه والحذر من الشَّيطان... إلخ[60]. ولم تكن عوامل الصِّحَّة النَّفسيَّة من منظور إسلاميٍّ - كما قصدها المؤلِّف- إلَّا مضامين مقياس مستوى التَّديُّن، الَّذي عرضنا له في ما سبق.

إنَّ مسألة التَّأصيل الإسلاميِّ لعلم النَّفس شائكة؛ لأنَّها مطروحة على مستوى الإشكاليَّة الكلاسيكيَّة للخصوصيَّة والكونيَّة، الأصالة والمعاصرة. وقد عالجها الباحثون في سياقات متخصِّصة تبعاً للميدان المعرفيِّ أو التَّطبيقيِّ في علم النَّفس؛ منهم مالك بدري بدراسته: «أزمة علماء النَّفس المسلمين»[61]؛ وإدريس عبد السَّلام

58 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة»، الرِّياض، الإدارة العامَّة للثَّقافة والنَّشر بجامعة الإمام محمَّد بن سعود الإسلاميَّة، 1421هـ/2000م. وقد ذكر المؤلِّف المنهج العلميَّ التَّوثيقيَّ الَّذي سار عليه كالتَّالي: 1- الاعتماد على نصوص الكتاب والسُّنَّة؛ 2- الاقتصار على الأحاديث الصَّحيحة أو الحسنة دون سواها من الأحاديث؛ 3- الرُّجوع إلى مؤلَّفات علماء السَّلف المختارين (ابن الجوزيّ، وابن تيمية، وابن قيّم الجوزيَّة) بشكل مباشر، ولأكبر عدد ممكن من مؤلَّفات كلّ عالم، ثمَّ قراءتها واختيار ما يناسب منها لموضوعات هذه الدِّراسة (ص ص5-6). والملاحظ أنَّه لم ينطلق من فرضيَّات علميَّة أو ملاحظات واقعيَّة، وإنَّما من مسلَّمات دينيَّة قد لا يُجمع عليها المتخصِّصون في علم النَّفس حتَّى من العرب؛ ما يطرح إشكالاً حول موضوعيَّة هذا العلم، وتعميم نتائجه لدى الجميع، وإن كان هذا لا يُلغي الحقَّ الإسلاميَّ (الثَّقافيَّ والإثنيَّ) في الاختلاف السِّيكولوجيّ والفكريّ عامَّة.

59 - المرجع نفسه، ص356

60 - الصنيع، صالح بن إبراهيم، «التَّديُّن والصِّحَّة النَّفسيَّة»، م.س، ص ص354-442

61 - بدري، مالك، أزمة علماء النَّفس المسلمين، ترجمة: منى كنتباي أبو قرجة، ديبونو للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، عمّان، 2010

شاهدي الوزَّاني بدراسته: «العلاج النَّفسيُّ وخطورة المنطلق- الأبعاد النَّفسيَّة للسُّلوك الإسلاميِّ»[62]؛ ومحمَّد عزُّ الدِّين توفيق بدراسته: «التَّأصيل الإسلاميُّ للدِّراسات النَّفسيَّة»[63]؛ وطارق بن علي الحبيب، بدراسته -على الرَّغم من طابعها العلاجيِّ التَّطبيقيِّ-: «العلاج النَّفسيُّ والعلاج بالقرآن-رؤية طبِّيَّة نفسيَّة شرعيَّة»[64]، وهي ذات المسألة الَّتي عالجها سلمان أختر[65] -صاحب مؤلَّف «الهلال وسرير الطَّبيب»- في مقالة عن «التَّحليل النَّفسيِّ والعالم اللَّاغربيِّ، محاولة عولمة فرويد»؛ وقريب مِمَّا قامت به مريم شولر- أوجاك عن «المسلمين المضطربين نفسيًّا في ألمانيا»[66]؛ علاوة على الدِّراسات الأخرى لمؤلِّفين كلاسيكيِّين في المجال مثل محمَّد عثمان نجاتي في دراسته: «مدخل إلى علم النَّفس الإسلاميِّ»[67].

لم يخرج الصنيع عن الإشكاليَّة التَّقليديَّة الَّتي طُرحت منذ عصر النَّهضة العربيَّة، أي الأصالة والمعاصرة، والتُّراث والتَّجديد، التَّقليد والحداثة؛ إلَّا أنَّه ذو ميل واضح إلى الأصالة والتُّراث والتَّقليد بالرَّغم من استخدامه لقواعد الإحصاء الغربيِّ في دراسة صدق مقياس التَّديُّن التَّقليديِّ، ومعالجة معطياته ونتائجه.

62 - الوزَّاني، إدريس عبد السَّلام شاهدي، العلاج النَّفسيُّ وخطورة المنطلق- الأبعاد النَّفسيَّة للسُّلوك الإسلاميّ، مركز التُّراث الثَّقافيّ المغربيّ، الدَّار البيضاء - دار ابن حزم للطِّباعة والنَّشر والتَّوزيع، بيروت، 1429هـــــــ/ 2008م.

63 - توفيق، محمَّد عزُّ الدِّين، التَّأصيل الإسلاميُّ للدِّراسات النَّفسيَّة، دار السَّلام للطِّباعة والنَّشر والتَّرجمة، القاهرة، ط2، 2002

64 - الحبيب، طارق بن علي، العلاج النَّفسيُّ والعلاج بالقرآن- رؤية طبِّيَّة نفسيَّة شرعيَّة، دار الحضارة للنَّشر والتَّوزيع، الرِّياض، ط10، 1433هـــــــ.

65 - أختر، سلمان، التَّحليل النَّفسيُّ والعالم اللَّاغربيُّ، ترجمه عن الإنجليزيَّة ماجد الخطيب، مجلَّة «فكر وفنّ» (خاصٌّ عن علم النَّفس وعولمة فرويد)، ع.102، س. 54، من إصدارات معهد جوته، 2015، ص5-10

66 - شولر-أوجاك، مريم، المزاوجة بين العلم الغربيّ والثَّقافة المحلِّيَّة: الجالية المسلمة في ألمانيا وعلم النَّفس، مرجع سابق، ص40-47

67 - نجاتي، محمَّد عثمان، مدخل إلى علم النَّفس الإسلاميّ، دار الشُّروق، القاهرة، 2001 (ص13 وما بعدها خاصَّة).

Mominoun
MominounWithoutBorders
@ Mominoun_sm

info@mominoun.com
www.mominoun.com